

الخشوع والافتقار من مظاهر الدُّعاء



قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «الدُّعاء مُخٌّ العبادَة ولا يُهْلِكُ مع الدُّعاء أحدٌ». يبيِّن هذا الحديث النبويَّ المبارك عن جوهر العبادَة وحقيقتها التي تتجلَّى في إقبال العبد المحتاج على المعبود الغني: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَيَّ وَالْأَقْوَامُ هُوَ الْغَنِيُّ) (فاطر/ 15). وهذا الإقبال هو التعبير الحيُّ عن الصلة الموضوعية بين الخالق والمخلوق، وعن شعور الإنسان بحاجته الدائمة إلى ربه تعالى في جميع أُموره، واعترافه الخاضع بالعبودية له تعالى، والتي تتجسّد في الشعور بالارتباط العميق بالله سبحانه، فجوهر العبادَة إذن هو تحقيق الارتباط والعلاقة بين الخالق والمخلوق، والدُّعاء هو أوسع أبواب ذلك الارتباط وتلك العلاقة، فهو إذن مخٌّ العبادَة وحقيقتها وأجلى صورها. وعن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أنَّهُ قال: «أفضل العبادَة الدُّعاء وإذا أَدِنَ العبد في الدُّعاء فتحَّ له أبواب الرحمة إنَّه لن يهلك مع الدُّعاء أحدٌ».

إذاً، الدُّعاء في نفسه عبادَة، فهما يشتركان في حقيقة واحدة هي إظهار الخشوع والافتقار إلى الله تعالى. وهو غاية الخلق وعلته، قال تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) (الذاريات/ 56)، وقال جلَّ جلاله: (قُلْ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ لَوْ لَا دُعَاؤُكُمْ لَفَقَدْنَا كَذِبًا بَتًّا فَسَوْفَ يَكُونُ لِرِزَامًا) (الفرقان/ 77).. فالدُّعاء والعبادَة يعكسان الفقر المتأصل في كيان الإنسان إلى خالقه تعالى مع إحساسه العميق بالحاجة إليه والرغبة فيما عنده. وطالما أنَّ هدف العبادَة تحقيق الرابطة الحقيقية التي ينبغي أن تكون بين العبد وربِّه، على أساس اعتراف العبد باحتياجه المطلق إلى الغني المطلق وإقراره بفقره وفاقته وعجزه ولا شيءيته أمام المالك الذي لا ينفد ملكه وسلطانه، فإنَّ الدُّعاء هو من أبرز العبادات التي تحقِّق هذا الهدف لأنَّ الدُّعاء مظهرٌ فقر الإنسان إلى الله تعالى واحتياجه إليه، عن الإمام الصادق (عليه السلام): «عليكم بالدُّعاء فإنَّكم لا تتقرُّون بمثله».

كلُّ إنسان مؤمن يحتاج إلى الشعور بهذه العلاقة من الارتباط بالله تعالى، وانطلاقاً من هذه الحقيقة يكون الدُّعاء هدفاً لا وسيلة، وبهذه النظرة يكون الدُّعاء هو العلاقة نفسها، وهو نفس الإحساس الذي

نحتاجه. إنَّ لسان حال المؤمن هو الدُّعاء دائماً، ذلك أنَّ كيانه يتحوَّل إلى سائلٍ يقف ببابِ الله ويناجيه ويدعوه في كلِّ وقت. إنَّ جميع المخلوقات في الدُّنيا مرتبطة بالذات الربوبية المقدَّسة، والإنسان كذلك باعتباره أشرف المخلوقات، فإنَّ وجوده مرتبط بالذات الإلهية المقدَّسة بالكيفية الأشرف المتناسبة مع الرتبة التي حباه بها الله تعالى. وهذا الإحساس الذي يمثِّله الدُّعاء يعطي للإنسان حالة معنوية من العروج والسلوك والقرب من الذات المقدَّسة، وهذه أعظم فوائد الدُّعاء.

من الصعب تحديد فوائد الدُّعاء وحصنها في نقاطٍ معينة، ويكفي أن يكون الدُّعاء اتصالاً مفتوحاً بين العبد والمعبود الأوجد الأعظم بما يحمل هذا الاتصال في طبيعته من راحة نفسية وطمأنينة واستمداد للقوَّة والعزيمة في حياة العبد على كلِّ صعيد، فبالدُّعاء إحياء لذكر الله وإزالة الغفلة التي هي أساس الانحراف والفساد اللذين يعتريان حياة الإنسان، وتعويد الإنسان على الذكر وترسيخه في قلبه. فإنَّ أكبر الخسائر التي تحصل نتيجة ترك الدُّعاء هو زوال ذكر الله من القلب، فالغفلة عن الله تعالى هي من أكبر خسائر البشر. قال تعالى: (الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) (الرعد/ 28). ومن خصوصيات الدُّعاء ترسيخ الإيمان واستقراره في قلب الإنسان، فمن خلال الدُّعاء واستمراره، والتوجُّه إلى الله تعالى يتقلَّص خطر زوال الإيمان. قال الله تعالى: (إِنَّ زَمَّامَ الْوَعْدِ لِيَوْمَئِذٍ لَذَّاقٌ مِنَ الْعَذَابِ وَإِنَّهُ لَكَارِئِمٌ) (الأنفال/ 2). إنَّ الحديث مع الله تعالى والقرب منه يعمِّق في الإنسان روح الإخلاص، الذي يعني العمل بنية خالصة، وعندما تتجذَّر هذه الحالة لدى الإنسان فإنَّ جميع أعماله يمكن أن تُنوي إلى الله تعالى. الدُّعاء وظيفته أن يضع عن كاهل الإنسان هذه الأغلال ويهبه روح الإخلاص التي تحرِّره من كلِّ قيدٍ بما فيها أثقلها وهو قيد الأنا والأناية: (هُوَ الْوَحْدِيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ إِنَّ الدِّينَ لَوَاحِدٌ لِّلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (غافر/ 65). نعم، إنَّ الدُّعاء هي تلك العبادة التي تحيِّ العشق القلبي إلى الله تعالى، وهذا العشق هو مظهر لجميع كمالات الباري تعالى: (الَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِاللهِ أَوْ ذُكِرَ اسْمُهُ فُتِحُوا بِحُضْرَتِهِ لِيَرْجُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) (الحج/ 35).. فالدُّعاء والأنس والنجوى مع الله تعالى يخلق هذه المحبَّة في القلوب.